ثمن النشوز

تينا أشقر نقاش

إن المرأة التي أجابت على أسئلتي في المقابلة التالية قد عانت من العنف على يد زوجها حتى أصبح الخوف يرافقها. وإن كانت اليوم مطلقة تعيش بعيداً. فلا تزال تخاف عنفه، ولذا طلبت ألاّ تعطي معلومات عنها (عمرها، عملها، اسم البلد الذي ذهبوا إليه أثناء الحرب...) تُمكّن قارئاً يعرفها أن يكتشف هويتها فيعلم زوجها أنها قد تكلمت وينتقم منها بالاعتداء المباشر أو بحرمانها من أولادها.

أريد أن أشير إلى أهمية اعترافات هذه الامرأة خصوصاً أن هناك مجموعة من النساء أدركن شيوع مشكلة العنف المنزلي في لبنان وإن لم توجد احصاءات عن الموضوع وتقدمن بطلب تأسيس جمعية لبنانية لمناهضة العنف ضد المرأة.

تينا أشقر نقاش

قبل الزواج لم تحصل حوادث عنف مثلما حدث بعده. فقد دفعني مرة ووقعت وانكسرت ركبتي. لم يكن يحاول ضربي لكن دفعه لي بقوة جعلني اصطدم بشيء ما فانكسرت ركبتي. أظن أن الضرب بدأ عندما بدأت أقول له ما يدور في ذهني وأعارضه فيما يقول وأعبر عن رأيي ولم أسكت و«أطنش» عندئذٍ بدأ الضرب بشكل جدي. لم أعد أذكر متى بدأ تماماً لكن الذي أتذكره بوضوح هو الفترة التي كنا فيها خارج لبنان عندما تلقيت ضربات «مرتبة» (مبرحة) والتي غطت جسدي كله ببقع زرقاء. أتذكر هذه الضربات جيداً وأظن أنها كانت أكثر ما عانيت. أتذكر أيضاً آخر حادثتين. أعنف الحوادث كانت تلك التي جرت ونحن خارج لبنان وقد جرت على النحو التالي: كان يعاشر امرأة أخرى وكان مطار بيروت مقفلاً حينذاك وكانت الحرب دائرة. فبقيت معه ولكن كنت «مثل الأربعاء بنصف الأسبوع». وكنت كلما أعارضه

بشيء يبادر إلى ضربي دون تردد حتى أنه ضربني على عنقي اضطررت بعدها إلى أن ألبس طوقاً.

س ـ عندما لبست الطوق ذهبت إلى الطبيب. ماذا قال الطبيب؟

ج ـ لم يقل شيئاً. لم يسألني عما جرى ولم أخبره.

س ـ ماذا كان يفعل زوجك بعد كل حادثة ضرب؟

ج ـ لا شيء. كان يضربني ويخرج من البيت وفي اليوم التالي يقول إن الضرب الذي أتحدث عنه هو من نسج خيالي. لم يعتذر أبداً.

س ـ هل أخبرت أحداً؟

ج ـ لم أكن أعرف أحداً في تلك البلاد وكانت البقع الزرقاء تغطي جسدي كله ولم أكن أتعاطى مع أحد. لكن بعد فترة من الزمن حكيت قصتي لبعض النساء من الجالية اللبنانية فكان جوابهن أن ما عانيته لا يُقارن بما تعانيه نساء أخريات عندئذ أحسست أن ما أعانيه أمر طبيعي ولا أهمية له. وعندما أصبحت العودة إلى لبنان ممكنة عدت مع الأولاد. عاد بعدها هو أيضاً الى لبنان وعادت المشاكل معه. وعندها هددني بالطلاق إذا رفضت العودة معه إلى (...). وفي إحدى الليالي عاد إلى البيت عند الثالثة صباحاً وهو سكران. أيقظني وأيقظ الأولاد وقلت لنفسي: «هذه الليلة لن تمر على سلامة». ثم هجم علي وضربني على وجهي. كل ذلك على مرأى من الأولاد. وابنتي الكبرى تتذكر كل ما حدث إلا أنها لا تأتي على ذكر الحادثة بتاتاً. لكني أعلم أنها تتذكر ما حصل لأنها ترتعب في كل مرة يعلو صوته في البيت وتقول: «الآن سيأتي علينا الان سيأتي علينا».

س ـ هل ضرب الأولاد؟

ج ـ كلا

س ـ هل أخبرت عائلته؟

ج ـ كلا. سوء معاملة المرأة أمر طبيعي في هذه العائلة. قبل الزواج كنت أظن أنه مختلف عن عائلته لكنه تبيّن أنه مثلهم هذا إن لم يكن أسوأ.

س ـ هل كان أبوه يضربه عندما كان صغيراً؟

ج ـ لا أدري.

س ـ هل كان عنيفاً معك فقط؟

ج ـ كان دائماً يستقوي على الضعيف ولم يحاول أبداً مواجهة من هم بقوته وقامته.

س ـ هل تقدمت بشكوى ضده؟

ج ـ كلا. لم أتقدم بشكوى. لم أفعل من أجل «السترة» إذ ليس من اللائق أن أذهب إلى المخفر وأواجه الشرطي وهو ينظر إليّ وكأنني أنا التي فعلت شيئاً لأستحق هذه الصفعات والضربات. الان نحن في حالة طلاق ورغم ذلك فهو لا يزال يتابع هجماته. من يومين استاء من أمرٍ كنت قد فعلته وبدل أن يأتي ليناقش الأمر بهدوء لنجد حلاً للمشكلة جاء إلى البيت يصرخ وهو سكران. وكان ذلك في الساعة الثانية بعد الظهر. فتحت الخادمة له الباب فدخل والشر في عينيه وينوي على الضرب عندها قلت لسائقه الذي كان موجوداً: «لا تتركني لأنه سيضربني». وخرجت بعدها من الشقة أُولول ليسمع الجيران ويعرفوا أنه قادم لضربي. عندها اضطر لأن يهدأ. وقلت له عندئذ: «هذه المرة لن أسكت. إذا ضربتني أدخلك السجن». ولأن السائق قال عندها بأنه سيبقى لكي نتفادى الشر طرده من عمله وهو ربّ عائلة. حصلت هذه الحادثة وابنتي الصغيرة في البيت.

بعدها قررت أن أتقدم بشكوى إن حاول مهاجمتي ثانية.

س ـ هل تكلمت مع محامي؟

ج ـ كلا. سأذهب إلى المخفر إن هاجمني ثانية. ليس له الحق أن يقترب من البيت ويعتدي علي بعد أن طلقنا. ليذهب ويعتدى على امرأته الجديدة.

س ـ هل لك تجربة مع المحاكم الشرعية بما يختص الضرب؟

ج ـ كلا. لكنني أعلم أنهم يمنحوننا الطلاق في حالة الضرب والأولاد يبقون معي حتى انتهاء مدة الحضانة. بعد انتهاء هذه المدة يعود الأولاد للعيش مع أبيهم حتى ولو كان سبب الطلاق هو العنف أو إذا كان الأب غير صالح وتزوج عشرين مرة.

من المفترض أن تذهب ابنتي الكبيرة للعيش مع أبيها السنة القادمة وهذا شيء غير وارد بالنسبة إليها. ترفض السلام عليه أو الكلام معه فكيف ستعيش معه. وكلما تلتقيه يحدث شجار بينهما.

س ـ هل تظنين أنه يضرب امرأته الجديدة؟

ج ـ كلا لأنها لا تعارضه بشيء. إنه يكره المشارعة وإذا انتقدته «بتكبر برأسه» ويبدأ بالضرب.

س ـ هل يعلم أصدقاؤك أنك تعرضت للضرب ولا تزالين؟

ج ـ الاصدقاء ـ الذين كنت أعتبرهم أصدقاء ـ الذين كانوا يأخذوني إلى المستشفى كانوا يعلمون. في عملي (أني مدرّسة) كان من المستحيل أن أدخل الصف وأقول بأني تعرضت

للضرب. ففي كل مرة كنت اختلق قصة جديدة: مرة حادث سير ومرة وقعت على الأرض ومرة صدمت وجهي بالمقود لأنني شددت الفرامل فجأة. تعلمت بذلك الكذب والتمثيل على الآخرين.

س ـ هل أخبرت أهلك؟

ج ـ لم يكونوا في نفس البلد. على كل حال ماذا كان بإمكانهم أن يفعلوا لي؟ هل يذهبون إلى المخفر؟ وإن فعلوا ما الذي سيحصل؟

س ـ هل كان من الممكن أن يناقشوه بالأمر؟

ج ـ كلا

س ـ هل كان من الممكن أن يهددوه؟

ج ـ لن يخيفه تهديدهم.

س ـ ما الذي كان من الممكن أن يردعه؟

ج ـ كلامي. كان يخاف من الذي كنت أقوله له.

س ـ لكنك لم تنجحي.

ج ـ لم أنجح معه عندما يكون تحت تأثير المخدرات والكحول. حينئذٍ يكون الكلام معه بلا فائدة وعندما يكون الضرب حاصلاً قلت له نعم أو لا.

س ـ لو كان هناك شرطي مثالي مستعد للاستماع إليك بإحترام...؟

ج ـ تأتي عندها عائلة زوجي وتوكل محامياً يقوم بعدها المحامي برشوة الشرطة وأصبح زانية. المال يتكلم إن كان في المخفر أو في المحكمة.

لم أذهب إلى المخفر من أجل أولادي إذ ليس من اللائق أن تذهب أمهم إلى المخفر لتتقدم بشكوى ضد والدهم.

س ـ لنفترض أنك تمكنت من إدخاله السجن وعجز والده عن إخراجه منه ماذا كان سيحصل؟

ج ـ عندما يدخل السجن سيتعرض للضرب وعندها سيعرف معنى ما كان يفعله بي.

س ـ هل تظنين أنه يعاني من مشاكل نفسانية؟

ج ـ من المؤكد أنه يعاني من عدة مشاكل. فمن يقوم بهذه التصرفات. ويتعاطى المخدرات ويشرب الكحول لا بد أنه كان يعاني من مشاكل نفسية في حياته.

س ـ هل تلعب المخدرات والكحول دوراً أساسياً في سلوكه؟

ج ـ مئة بالمئة.

س ـ هل سبق أن ضربك دون أن يكون تحت تأثير المخدرات أو الكحول؟

ج ـ نعم عندما كنا في (...) حصل ذلك. فمن لحظة إلى أخرى كان يبدأ بالضرب. وكان عدم سكوتي له يزيد من عنفه إذ إني لست من الأشخاص الذين يتعرضون للاعتداء ويقفون مكتوفي الأيدي.

س ـ هل تظنين أن كلامك زاد من عنفه؟

ج ـ عندما كان يصفعني لم أكن استسلم وعندما كان يسدد لي لكمة كنت أسدد له عشرة. كنت أرد عليه بعنف وعندما كان يجن جنوني كنت أؤلمه بدون وعي وذلك لأني لا أتقن فن الملاكمة.

س ـ هل تملكين شيئاً للدفاع عن النفس؟

ج ـ كلا.

س ـ لو كنت تملكين قطعة سلاح هل كنت تستعملينها؟

ج ـ أظن أنني كنت قتلته.

س ـ لنعود إلى حوادث العنف التي حصلت في بيروت كيف علم بها الأصدقاء؟

ج ـ كانوا يعلمون بها صدفة. كنت أبقى في البيت وأقول إني مريضة وإذا زارني أحدهم رآني في الحالة التي كنت فيها. كنت دائماً أرفض الذهاب إلى المستشفى. لكن اضطررت للذهاب معهم مرة إلى المستشفى لأنني خفت على عيني وأنفي إذ أن انفي كان مكسوراً.

س ـ هل سألوك في المستشفى عن سبب الحادث؟

ج ـ طبيبة العيون قالت بأني تعرضت للضرب لكني قلت بأني وقعت. وقلت لها أن تسجل أن سبب الحادث هو الوقوع لأن ذاك ليس شأنها ولو كنت أريد الشكوى كنت قلت لها بأن سبب الحادث هو الضرب لم أكن أريد أن يسجلوا في المستشفى أني تعرضت للضرب وهذا ليس مراعاةً له بل مراعاة لي. إذ أكره أن أوصف بأني تعرضت للضرب.

س ـ هل تعرّضك للضرب يُشعرك بالذل وهل إذا عرف الناس بهذا الأمر يزيد شعورك بالذل؟

ج ـ يا أرض انشقي وابلعيني!

س ـ هل كنت تشعرين بالذنب؟

ج ـ أبداً لكن لم أكن أريد أن يراني الناس بهذه الحالة.

س ـ أن يراك الناس أم أن يعرف الناس أن الحادثة حصلت؟

ج ـ الحالتين.

س ـ ما الذي كان يزعجك إذا علم الناس؟

ج ـ لم أرد أن تلوكني الألسن بهذا الموضوع وإن كان للناس أن يتحدثوا عني فليكن لسبب غير سبب الضرب.

س ـ ماذا قال اصدقاؤك الذين كانوا يعلمون؟

ج ـ لسوء الحظ كل الناس الذين كانوا حولي لم يعودوا أصحابي ولم أفهم لماذا: أنا لو كنت مكان هؤلاء الأصدقاء وكان لي صديقة تتعرض للضرب من قبل زوجها كنت رميته بحذائي عند أول مرة أراه أمامي وبحضور الناس. لكن موقف أصدقائي لم يكن هكذا ولهذا السبب انتهت الصداقة بيننا. ربما لأنهم كانوا يخافونه وكنت أنا الوحيدة التي لا أخافه وربما كان هذا سبب عنفه معي.

س ـ كيف تصفين وضعك الآن؟

ج ـ بعد طلاقي منه أشعر بأني قادرة على مواجهته مهما فعل. لو كنت قد تقدمت بشكوى ضده عندما كنت زوجته لكان هددني بالأولاد وبترك البيت لكن الان بماذا سيهددني إني مطلقة، وإذا أراد الأولاد فليأخذهم لم يعد بوسعه أن يستعمل أي شيء ضدي.

س ـ لو لم يكن عندك أولاد ماذا كنت فعلت؟

ج ـ كنت رميته بالرصاص. كانت هذه الفكرة تراودني في كل مرة كان يضربني فيها وجود الأولاد أنقذ حياته. لقد بقيت معه لأني كنت مضطرة من أجل الأولاد.

س ـ لم يكن لك استقلالية مادية؟

ج ـ كلا. لم أكن أريد أن أهدم بيتي. بقيت هكذا لفترة طويلة هي خمس سنوات عانيت فيها بجانب مشكلتي معه من مشكلة ثانية وهي عدم استقراره المهني فكان علي أن اصبر على هذه المشاكل ويا ليتني تركته من أول الطريق.

س ـ هل اعتقدت أن في وسعه أن يتغير؟

ج - كلا. اقنعت نفسي أن هذه هي حياتي وإن علي ان اقبل بها. هذا هو الرجل الذي اخترته وانجبت منه أولاد كانت غلطة ولكن انتهى الأمر وعلي أن أدفع الثمن.

س - ماذا تقولين لامرأة تواجه مشكلتك؟

ج - عليها أن تترك في أسرع وقت قبل أن تتأزم الحالة أكثر وعندها يعتاد الزوج على هذه المعاملة ويصبح الضرب عادة لا يمكنه أن يتخلى عنها. أعرف امرأة انفصلت عن زوجها عند أول صفعة ولكن لم يكن عندها أولاد. وهناك امرأة أخرى تتعرض للضرب دائماً حتى وهي حامل لكنها لم تنفصل عن زوجها لأنها كانت تخشاه. ليتها كانت صديقة لأقول لها بأنها لا تعلم ماذا ينتظرها وينتظر ولدها وإن وجود الأولاد لا يوقف العنف.

س - هل ضربك مرة وأنت حامل؟

ج - مرة. وكانت المرة الوحيدة التي اعتذر فيها. أظن أنه دفعني وكنت سأقع. يومها خاف.

تأزمت الحالة كثيراً بعد مجيء الولد الثاني وكأنه أحس بعبء مع أننا كنا خططنا لإنجابه إذ لم يكن مفاجأة لكن أحسست أنه كان يتهرب من المسؤولية مع أنه كان حنوناً مع الولد الأول. وفي يوم من الأيام ضربني وكانت ابنتي الصغيرة في شهرها الثاني فما كان مني إلا أن ضربته وضربت شخصاً اخر كان معه وهددته بالقتل فلم يجرؤ بعدها على ضربي ثانية. حينئذ كان علي أن أفعل ما قاله لي والدي وهو أن أترك البيت لكني لم أفعل وذلك من أجل الأولاد. أذكر آخر حادثة عنف حصلت وهذا من بضعة أشهر. كنا مطلقين ولكن أردنا أن نحاول العيش معاً من أجل الأولاد. وافقت على المحاولة خشية أن يبقى الأولاد معه خلال عطلة الأسبوع. كان شربه للكحول يقلقني ولم أكن أنام وأنا أفكر أن الأولاد معه وقد قمت بهذه المحاولة لمدة ستة أشهر ذقت فيها الأمرّين قلت له بعدها: «أفضل الموت وحدي على العيش معك». صفعني ثم سألني إن كنت أريده أن يرحل وعندما قلت: «نعم» ضربني ثانية. بعد بضعة أشهر دخل إلى البيت وحاول أن يخنقني. تسمرت في مكاني ولم أريه أني أشعر بالألم. والحقيقة أني لم أكن أشعر بأي ألم. لم أعد أشعر بشيء كنت مثل لوح الثلج حتى أنه استغرب وتساءل إن كان من المعقول أن يخنقني بيده وأنا صامتة. بقيت البقع الزرقاء من جراء الضغط على عنقي لمدة يومين أو ثلاثة. تحولت للوح من الثلج لأنني رأيت الخوف على وجه الأولاد، عندما حدّقت في عينيه وقلت له: «لا تحاول شيئاً أرفع يدك عني إني لا أشعر بشيء». عندئذ رفع يده وذهب. فصار الأولاد يقولون: «كاد يخنقك». قلت: «كلا أبداً لم أشعر بشيء».

أولادي اليوم يخافون عندما يدور أي نقاش بيننا ويقولون: «الآن سيأتي علينا» فأقول: «الكلب الذي ينبح لا يعض هو فقط متوتر الأعصاب بسبب العمل وما يفعله هو فقط من باب التنفيس فلا تخافوا شيئاً والحقيقة أنه لم يحاول ضرب الأولاد إلى اليوم».

س ـ هل فكرت بماذا ستقولين لهم في المستقبل؟

ج ـ لم أقرر شيئاً بعد. لن أفتح الموضوع سأنتظر حتى يسألوني هم بأنفسهم ومن الآن وحتى ذلك الحين تكون الأزمة قد زالت. الذي ألاحظه اليوم هو أنهم يعيشون حالة من التمزق بين حب والدهم وكرههم له. هو الآن متزوج وزوجته حامل ولقد سألتني ابنتي الكبرى مرة عما جرى بيني وبين والدها. فقلت بأني أنا المسؤولة عن خراب البيت وأنا من طلبت الطلاق وطالبته بترك البيت. غضبت ولم تعد تكلمني وذلك لمدة يومين وقلت لها بأنه لها الحق أن تغضب إلا أنه سيأتي علي يوماً أخبرها فيه كيف كانت حياتي جحيماً معه وأني طلبت الانفصال عنه من أجلي ومن أجل أولادي إذ أننا نكره الجو الذي كنا نعيش فيه ونريد العيش بسلام وفرح.

لست أدري إن كان من حقي أن أكون سبباً في تدميره. أحاول أن أتحدث عنه بطرافة من حين لآخر واستغيبه واستغيب زوجته كمحاولة لتجنب الجانب المأساوي في وضعنا هذا كي لا تتضخم الأمور في نفوس الأولاد.

س ـ هل تكلمت عن الوضع مع أساتذة المدرسة؟

ج ـ أزور المعلمات بعد مضي أول شهر على ابتداء العام الدراسي ولم تلاحظ أي منهن أن أولادي يعيشون بين والدين مطلقين أو انهم يعانون من أزمة سببتها مشاهد العنف التي عاشوها. الحمد لله أن سلوكهم في المدرسة طبيعي ولم تظهر أي بوادر ملفتة للنظر.

س ـ كيف تفسرين هذه الميزة

ج ـ أظن لأني حاولت أن أعوض عليهم إذ كنت دائماً حريصة على تسليتهم والترويح عن أنفسهم. فمثلاً بعد كل حادثة تقع كنت أقدم لهم تفسيراً مقنعاً ثم نقوم بنشاطات تثير الضحك وتموّه عن أنفسنا. كما أن أهلي يلعبون دوراً هاماً في حياة أولادي فهم يشعرون بالطمأنينة بصحبة والدي. ووالدي لم يكن يخشى زوجي السابق. أعتقد أن الأولاد قادرين على فصل مشاكل البيت عن المدرسة. كما أعتقد أن نظرتهم للزواج والرجال ستتأثر حتماً بتجربتهم مع أبيهم والدليل ما تقوله ابنتي الكبرى عن الزوج. هي لا تريد أن تتزوج وفي حال تزوجت تفضل أن تبقى معي وكنت أجيبها بأن عليها أن تستقل بحياتها عني عندما تتزوج. أقول لها هذا لأني لا أريد أن أكون الأم الحزينة المغلوب على أمرها. والتي تعتمد على أولادها لحمايتها والاهتمام بها.

س ـ من أين لك هذه القوة؟

ج ـ عليّ أن أكون قوية. ما الذي سيحصل لأولادي إن لم أكن قوية وصامدة. منذ طفولتي

وأنا قوية وترعرعت بجو عائلي يسوده الأمان ومع والدين منفتحين. كان كل فرد من أفراد الأسرة له الحق بإبداء رأيه لم أعش في جو قمعي وما تعودت على السكوت عما أرفض. عشت أياماً صعبة كنت فيها في الحضيص لكني كنت اجتازها دائماً وكنت أخرج منها أقوى.

س - هل تفكرين بعلاقة برجل آخر؟

ج - كلا أبداً. أنا لا أخاف الرجال بل اشمئز منهم أشعر أنهم أضعف من المرأة. الرجال الذين احترمهم قلائل وكلهم من جيل أهلي.

س - هل هناك طريقة نساعد فيها المرأة التي يضربها زوجها؟

ج - في هذه البلد من الصعب جداً من أين نبدأ.

س - ماذا يقول الناس عن هذا الموضوع؟

ج - لا أحد يحب التكلم عن هذا الموضوع ولا يوجد هناك امرأة تصرّح بأن زوجها يضربها.